الأخلاق عماد الحضارة

كثيرًا ما يُختزل معنى الحضارة في ضخامة العمران وسعة السلطان وفيض الثروة، حتى يُجعل التقدم مرادفًا للقوة المادية، غير أن هذه المظاهر جميعها إنما هي ثمرة لا أصل، وأن وراءها منظومة أخلاقية هي التي أنبتتها وحفظت بقاءها، فالعمران لا يقوم من فراغ وإنما يقوم على ثقة تتبادلها القلوب وعدل تطمئن إليه النفوس وإرادة يجمعها هدف مشترك يعلو على المصلحة الفردية، فإذا صحت هذه الأصول الخلقية ازدهر البنيان وإذا فسدت تداعى ولو بقيت قشوره ظاهرة أمدًا من الزمن.

ولعل أول ما تقوم عليه الحضارة هو الثقة وهي ثمرة الصدق والأمانة قبل أن تكون نتيجة نظام اقتصادي أو قانوني. فلا تجارة تزدهر ولا معاملة تستقر إلا بين قوم يصدق بعضهم بعضًا ويأمن بعضهم غدر بعض، وحين تضعف هذه الثقة لا يُغني عنها ضخامة السوق ولا كثرة القوانين إذ أن القانون نفسه لا ينفذ إلا بأخلاق من يطبقه ولا تحترمه نفوس اعتادت الخديعة والمراوغة، فالثقة سابقة على المؤسسة وهي التي تمنحها معناها لا العكس.

ثم يأتي العدل، وهو الأصل الذي يحفظ للحضارة استمرارها بعد أن تنشأ، فما أهلك الأمم في الأعم الأغلب ضعفٌ في عتادها أو قلةٌ في مالها بل ظلمٌ نخر بنيانها من الداخل حتى انهار على أهله، وقد أدرك ابن خلدون هذا المعنى وعقد له فصلًا كاملًا في مقدمته بعنوان (في أن الظلم مؤذن بخراب العمران)، بيّن فيه أن جور الحاكم على رعيته يُطفئ هممهم في العمل والكسب حتى يتداعى العمران، لأن الظلم يُطفئ الهمة، ويصرف الناس عن العمل والبناء إلى الحذر والتحايل. فالعدل إذن ليس فضيلة فردية معزولة بل هو الشرط الذي يجعل اجتماع الناس ممكنًا.

وإذا كان ابن خلدون قد نظر إلى الأثر الاجتماعي للعدل في عمران الأمم، فإن شيخ الإسلام ابن تيمية يذهب بهذا المعنى إلى أفق أبعد، إذ يقرر أن العدل الذي يتوصل إليه الناس بعقولهم يحمي مجتمعهم من السقوط وإن كانوا كفارًا، في حين أن المجتمع الذي يرعى الظلم أو يغض الطرف عنه يسقط ولابد وإن كان مسلمًا. يقول رحمه الله: "وأمور الناس تستقيم في الدنيا مع العدل الذي فيه الاشتراك في أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإنْ لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدولة العادلة وإنْ كانت كافرة ولا يقيم الظالمة وإنْ كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام... وذلك أنَّ العدل نظام كلِّ شيء، فإذا أُقيم أمر الدنيا بعدلٍ قامت وإنْ لم يكن لصاحبها في الآخرة من خَلاق ومتى لم تَقُمْ بعدلٍ لم تَقُمْ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخِرة" فالعدل على هذا ليس شرطًا للنجاة الأخروية وحدها بل ناموس كوني يسري على الدول قبل أن يكون حكمًا شرعيًا يخص المؤمنين وحدهم، وهذا ما يفسر بقاء دول لا تدين بالإسلام ما دامت عادلة وسقوط دول تحمل اسمه حين يسودها وليس هذا المعنى مما انتهى إليه المؤرخون وحدهم، بل قرره القرآن من قبل، قال تعالى في سورة هود: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) فجعل وجود المصلحين سببًا في دفع الهلاك عن المجتمعات، وهو ما ينسجم مع السنة الكونية التي تقضي بأن الظلم والفساد إذا استحكما في أمة عجّلا بتآكلها من الداخل.

وليس التاريخ بعيدًا عن هذا المعنى، فكم من دولة بلغت ذروة القوة ثم أخذ الضعف يدب في أوصالها حين تفشى الظلم واستشرى الفساد وضاعت الأمانة وتغلَّبت المصالح الخاصة على المصلحة العامة، وعلى سبيل المثال لم يكن سقوط الدولة العباسية وليد هزيمة عسكرية مفاجئة وإنما سبقته عقود طويلة من التآكل الداخلي حتى إذا جاءت الضربة الخارجية وجدت بنيانًا قد نال منه الوهن فعجلت بسقوطه.

وإذا كانت الثقة والعدل يحفظان تماسك المجتمع في سكونه فإن الحضارة تحتاج أيضًا إلى ما يدفعها في حركتها، وهذا ما توفره فضائل أخرى كالصبر والوفاء والإيثار، فالبناء الحضاري عمل بطيء متراكم لا يقوم على جهد فرد واحد ولا في جيل واحد وإنما يحتاج إلى أناس يصبرون على الكد وهم لا يرون ثمرته ويفون بعهد من سبقهم فيكملون ما بدأوه ويؤثرون مصلحة الجماعة على راحتهم العاجلة، وهذه أخلاق لا يُلزم بها قانون، ولا تُشترى بمال، وإنما تنبع من داخل النفس حين تستشعر أن بناء الأمة أمانة تتجاوز حدود الفرد،

وكثيرًا ما يبدأ سقوط الحضارات بفساد أخلاقي، ولا يظهر أثره إلا حين تشتد الأزمة فيعجز البنيان عن مقاومتها، فقد تبقى مظاهر القوة قائمة من عمران شامخ وثروة ظاهرة بينما الروح التي تحمل هذا كله قد خَوَت من الداخل، فإذا نزل الابتلاء انكشف أن تلك القوة لم تكن إلا مظهرًا يخفي ضعفًا عميقًا، فسقطت كما يسقط جسد فارقته الحياة وإن ظل ظاهره سليمًا حينًا.

وعلى هذا فإن الحضارة الحقيقية ليست ما يُرى من عمرانها وإنما ما يُخفى من أخلاق أهلها فالمادة وعاء والخُلق مضمونه ولا قيمة لوعاء خلا من مضمونه مهما بدا متقنَ الصنعة. ومن أراد أن يقيس تقدم أمة فلينظر أولًا إلى مقدار الصدق في معاملاتها والعدل في أحكامها والإيثار في أبنائها، فتلك موازين أدق من كل ما يُحصى من الأرقام، وأبقى من كل ما يُشيَّد من الجدران.